المؤسسة العربية للدراسات الإستراتيجية
ARAP STRATEJİK ARAŞTIRMA MERKEZI

الحديدة ... الأهمية الاستراتيجية والجيوسياسية

ورقة مقدمة لمؤسسة العربية للدراسات الاسيراتيجية

السبت 8 ابريل/ نيسان 2017

إسطنبول- تركيا

ياسين التميمي

يعود أقدم تاريخ للحديدة كمدينة وميناء صيد نشط، إلى القرن التاسع الهجري، ولكنها كقرية صيد تعود إلى أقدم من ذلك، أي مع بداية الوجود العثماني في اليمن.

ففي العهد العثماني ازدهرت تجارة البن، ومعها زادت درجة التنافس بين شركات الهند الشرقية البرتغالية والهولندية والإنجليزية والفرنسية، وازدادت أهمية المدن الساحلية التي كان على رأسها مدينة المخا، وكان نصيب الحديدة كبيراً في الاستفادة من حركة التجارة الناشئة، حتى أنها تحولت إلى أهم ميناء تجاري إثر تراجع دور المخا منذ احتلال بريطانيا لمدينة عدن عام 1839م.

وفي القرن التاسع عشر، أصبحت مدينة الحديدة كمدينة المخا مدينة شبه عالمية وفيها ممثليات قنصلية للدول الغربية ومكاتب تجارية، وجاليات أجنبية، وتحولت إلى سوق مهم جداً للقادمين من جنوب آسيا ومن شرق آسيا أيضاً والذين يأتون بغرض أداء فريضة الحج.

حتى مدينة صنعاء استفادت من ازدهار الحركة التجارية في الحديدة وسرعان ما انتقل التجار الهنود للاستقرار في صنعاء وكان بعض هؤلاء التجار من الهندوس(البانيان).

وهناك عائلات هندية استقرت في الحديدة وأصبحت جزء أصيلاً من النسيج الاجتماعي لمدينة الحديدة ومن أشهرها عائلة معجم وعائلة صدام، وعائلة فقيرة.

وثمة حالة متبادلة من التأثير والتأثر بين الحديدة وصنعاء، يمكن قراءته من الناحية الجيوسياسية، فالحديدة أصبحت المنفذ البحري الأقرب للعاصمة صنعاء، وكان العثمانيون قد اعتمدوا مشروعاً طموحاً لربط الحديدة بصنعاء عبر سكة حديدة بدأت من رأس عيسى وكان يفترض أن ينتهي إلى مدينة عمران، ولكن المشروع لم يستكمل بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، حيث استهدفت سكة الحديد من قبل الطائرات الإيطالية القادمة من إرتريا وأثيوبيا.

تشاءم بعض رؤوس العهد الإمامي كثيراً من مشروع ميناء الحديدة الذي أنشئ عام 1961 أي قبل عام من قيام ثورة 26 سبتمبر 1962. وتشاءموا أيضاً من الخط الأسفلتي الذي ربط الميناء بمدينة صنعاء وأنشأه الصينيون كجزء من منحة صينية لليمن، شملت أيضاً إقامة مصنع للغزل والنسيج في صنعاء، وهو المصنع الذي اعتمد على مزارع في زبيد.

وكان مصدر التشاؤم أن هذه المشاريع ستفتح عيون اليمنيين على الحياة وستدفعهم إلى المطالبة بالمزيد من مظاهر التحضر وهو ما يجعلهم أكثر تحرراً من السيطرة الإمامية المطلقة.

وبقدر ما أضافت سيطرة الحوثيين على الحديدة في أكتوبر 2014 أهمية جيوسياسية للحوثيين خصوصاً وأنها قربتهم أكثر من السيطرة على مضيق باب المندب، فإنها خطط الحكومة والتحالف العربي لتحرير الحديدة بعد أن تم الانتهاء من تحرير جنوب البحر الأحمر من مضيق باب المندب إلى الخوخة، تزداد مخاوف الحوثيين من قرب النهاية بالنسبة لسلطة الأمر الواقع التي أسسوها بتواطؤ كبير من المخلوع صالح.

الأهمية الاستراتيجية لمدينة الحديدة

لا تستمد مدينة الحديدة أهميتها الاستراتيجية والجيوسياسية من موقعها، فموقعها ليس بأهمية ميناء المخا القريب من مضيق باب المندب، ولكنها تستمد أهميتها من عوامل عدة أهمها:

- **أنها تضم أهم وأكبر ميناء تجاري على البحر الأحمر وأكثر موانئ التجارية نشاطاً، وقد أصبح أهم مصدر لتحصيل الرسوم الجمركية والضريبية والتي تصل إلى نحو 90 مليار ريال سنوياً.**
- **أصبحت أهم مرفأ لتهريب الأسلحة الحديث إلى الانقلابيين من قبل إيران، وقد كشف المتحدث باسم التحالف العربي بأن صواريخ "الكورنيت" المضادة للدروع وصلت إلى المقاتلين الحوثيين مؤخراً.**
- **شكل بقاءُ الحديدة وميناؤها بعيداً عن الخطط العسكرية للتحالف جزء من استراتيجية غربية لتأمين شريان حياة مستدام للانقلابيين وإبقاء مشروعهم السياسي قائماً وقادراً على المناورة على المستويين السياسي والعسكري.**
- **أنها تشكل أكبر تجمع سكاني على الساحل الغربي وهو ثاني أهم كتلة سكانية بعد محافظة تعز إذا تعلق الأمر بالقرى والمدن الثانوية لمحافظة الحديدة ككل.**

وهذا من شأنه أن يزيد معركة التحرير التي تخوضها الحكومة بإسناد من التحالف العربي أكثر تعقيداً.

- **تمثل محافظة الحديدة وساحلها التهامي أهم مصدر للتمويل الغذائي للبلاد، خصوصاً ما يتعلق ببعض محاصيل الحبوب، والموز، بالإضافة إلى محاصيل القطن.**

الأهمية الجيوسياسية:

لا يمكن اختصار الحديدة في المدينة المركز أو في الميناء الرئيس، ذلك أن محافظة الحديدة هي فضاء جغرافي يمتد معظمه على سهل تهامة الخصب، وعلى طول 300 كيلو مترتقريباً من الخوخة وحتى اللحية، وتقطع هذا السهل أودية كبيرة أكبرها وادي مور، وفيها تتدفق مئات آلاف الأمتار المكعبة من مياه الأمطار التي ينتهي معظمها إلى البحر.

وفي المحافظة مرفأ مهم في الصليف بالإضافة إلى مرفأ في الخوخة، وهناك عدة موانئ للصيد التقليدي على امتداد ساحل الحديدة.

والأهم من ذلك أن المحافظة تضم سلسلة من الأرخبيلات الكبرى في البحر الأحمر، ومنها أرخبيل كمران، وأرخبيل حنيش وأرخبيل زقر، تمثل أهمية حيوية بالنسبة لحضور ونفوذ اليمن على خط الملاحة الدولية الذي يمر فيه نحو 20 في المائة من تجارة النفط العالمية.

وتكمن الأهمية الكبرى للحديدة من الناحية الجيوسياسية في كونها المنفذ البحري الرئيس المتبقي لدى الانقلابيين، كما أن بقاء محافظة الحديدة ككل تحت سيطرتهم من شأنه أن يدعم حالة التكافؤ الظاهري الحالية في الوزن السياسي والجغرافي بين سلطة الأمر الواقع في صنعاء والسلطة الشرعية المعترف بها دولياً.

ولعل في الإصرار الذي تظهره الأمم المتحدة تجاه مسألة تحرير الحديدة ما يشير إلى الموقع المفصلي الذي تمثله الحديدة، ففي حال فقدانها سيفقد الانقلابيون المدد والإمداد وسيفقدون العمق الجغرافي والتأثير الجيوسياسي في منطقة البحر الأحمر وفي خطوط الملاحة الدولية التي بقيت حاضرة في عمق الصراع العسكري القائم حالياً في اليمن.

إن واحدة من أهم مبررات تدخل التحالف العربي، هو إنهاء التأثير السيئ للميليشيا الانقلابية على خطوط الملاحة الدولية، وهو التأثير الذي لا يزال قائماً حتى اللحظة، بسبب بقاء الحديدة تحت سيطرة الانقلابيين، على الرغم من الإنجاز المهم جداً والمتمثل في استعادة مضيق باب المندب ومدينة المخا.

تستطيع إيران الاستمرار في الادعاء بأنها لا تزال قادرة على تغيير معادلة الحرب في اليمن، وقد تجلى ذلك في تسارع وتيرة تهريب الأسلحة وفي نوعية تلك الأسلحة التي باتت تشكل خطراً تكتيكاً على التفوق النوعي للتحالف خصوصاً ما يتعلق منها

بمنظومة الدفاع الصاروخية التي أفشلت الضربات الصاروخية للانقلابيين سواء في عمق اليمن أو فيما وراء الحدود مع السعودية.

وهذا الادعاء مدعوم ببقاء الحديدة تحت سيطرة الانقلابيين حتى اللحظة ومنها وعبرها تمر التعزيزات العسكرية السرية من إيران إلى الحوثيين والانقلابيين.

يبدو أن ثمة قوى دولية لا ترغب في خسارة الحوثيين والانقلابيين إجمالاً لمدينة الحديدة لهذا تدفع باتجاه تجنيب المدينة والميناء عملية عسكرية وشيكة.

وفي هذا السياق يبرز الدور الروسي الذي دعا إلى عقد جلسة خاصة لمجلس الأمن لمناقشة موضوع الحديدة، في واحدة من أهم مظاهر التحول في الموقف الاستراتيجي لروسيا تجاه اليمن، والذي كشف عن ترتيبات سابقة لموسكو في استخدام ورقة الانقلاب لدعم مكانتها ودورها في اليمن والمنطقة.

خلفيات الحسم العسكري المرتقب:

قرار تحرير الحديدة اتخذ على ما يبدو وهناك ترتيبات لخوض المعركة قريباً، المعركة ستكون بقيادة الإمارات وبإسناد من التحالف.. الجيش الوطني المرابط في ميدي سيشارك في المعركة وهناك ألوية من أبناء الحديدة دربتها الإمارات ومعظم عناصرها ينتمي إلى ما يسمى الحراك التهامي.

هناك معلومات شبه دقيقة بأن الإمارات طلبت دعماً لوجستياً من الولايات المتحدة، وهذا يعني أن العملية سوف تخضع لمنطق الشراكة التي تجمع الإمارات مع الولايات المتحدة على هامش التدخل العسكري للتحالف العربي في اليمن.

وأكثر ما يثير القلق هو أن المعركة ستخاض على الأرجح بنفس معايير معركة تحرير عدن والمخا، أي أنها ستركز على أولوية مواجهة الإرهاب وهو مدخل كما نعلم يقود من وجهة نظر الإمارات إلى مواجهة قوى سياسية تصنفها هي بأنها إرهابية.

لذا من المرجح أن تستمر الإمارات في تبني النهج نفسه، فتقوم بتحييد قوى المقاومة المحسوبة سياسيا على الشرعية، لأن هدف التحرير ينطوي أيضاً على أهداف جانبية وهي منع بعض القوى السياسية وخصوصاً الإصلاحيين من الاستفادة من نتائج المعركة المقبلة.

ليس غريباً أن تتجلى مؤشرات الحسم في الحديدة في إقالة محافظها عبد الله أبو الغيث المحسوب على الإصلاح، وإجبار الرئيس هادي على تعيين المحافظ الجديد الدكتور الحسن طاهر القيادي البارز في المؤتمر الشعبي العام الذي يتزعمه الرئيس المخلوع علي عبد الله صالح.

هذه الخلفية الموتورة لمعركة تحرير الحديدة، من شأنها أن تقلل من تأثير الخروج المرتقب لهذه المحافظة من قبضة الانقلابيين. وسوف تفضي إلى وضع متوتر، أشبه بذلك الذي رأيناه في عدن.

من الواضح أن الأهداف التي أوكلت مهمة تحقيقها إلى الحوثيين عام 2014 تتحقق الآن على أيدي التحالف عبر هذا النمط المدمر من الترتيبات التي تقوم على تهميش قوى تعمل تحت مظلة السلطة الشرعية، وتمكين قوى محسوبة على قوى لطالما اتخذت موقفاً سلبيا من ثورة الحادي عشر من فبراير 2011.

لكن هذا لا يقلل أبداً من أهمية الإنجاز المرتقب والمتمثل في تحرير الحديدة، ذلك أن التخلص من الحوثيين تكمن أهميته في أنه يضع حد لمشروع طائفي تفكيكي مرتبط بإيران، وعدا ذلك يمكن أن يخضع إلى إعادة النظر في طبيعة الترتيبات الحالية بما يضمن عهداً أكثر استقرار في مرحلة ما بعد التخلص من الانقلاب.

الإستنتاجات:

نستنتج مما سبق أن تحرير الحديدة، هو خيار لا رجعة عنه بالنسبة للحكومة الشرعية والتحالف بسبب ضيق الخيارات المتصلة بإنهاء نفوذ الانقلابيين على أهم مرفأ بحري وأكثرها نشاطاً تجارياً وأعني به ميناء الحديدة، خصوصاً بعد أن رفضت الأمم المتحدة الاشراف على الميناء.

ويتضح أيضاً أن معركة تحرير الحديدة ليست عسكرية فقط، بل سياسية واقتصادية، ويقف في الطرف الآخر منها الانقلابيون والأمم المتحدة وروسيا وبعض المنظمات النشيطة ومراكز صنع القرار في الغرب.

إمساك الإمارات بزمام المبادرة يشكل أحد الضمانات التي يحتاجها الغرب للتأكد من أن النصر في الحديدة لن يجير لحساب القوى المحسوبة على السلطة الشرعية والتي يشكل تحجيمها أحد الأولويات المشتركة للإمارات وأطراف غربية.

وبناء عليه فمن الأرجح أن تخاض المعركة بذات القوى والإمكانيات التي ستقف على هامشها وربما في الطرف المقابل منها مستقبلاً القوى والتيارات المحسوبة على ثورة الحادي عشر من فبراير على نحو ما حدث في المحافظات الجنوبية

وفي مدينة المخا التابعة لمحافظة تعز التي غابت عنها مقاومة تعز والجيش الذي ينتمي إلى المحافظة وحضرت المقاومة الجنوبية والعناصر المحسوبة على المخلوع صالح التي أصبحت جزء من الترتيبات الأمنية اللاحقة في المدينة.

المؤسسة العربية للدراسات الإستراتيجية
ARAP STRATEJİK ARAŞTIRMA MERKEZI